القراءة التشخيصية عند لويس ألتوسير

د.نوال بورحلة

أستاذة محاضرة (أ) جامعة الجزائر–2–

الملخص:

الهدف من هذا المقال التعريف بالقراءة التشخيصية التي تعدّ إحدى الطرق المنهجية في البحث الفلسفي، وقد أراد لويس ألتوسير تقديم هذه القراءة لتعلّمنا أصول القراءة الفلسفية السليمة والتي تعتمد على خطوات منهجية تسمح بتقديم التحليل الفلسفي للنص.

الكلمات المفتاحية:

القراءة التشخيصية، المنهجية، النص الفلسفي.

Abstract:

Althusser's conception of diagnostic reading

Diagnostic reading is one of the methodological ways followed in philosophical research , and in this regard we see Althusser proposes this kind of reading which helps us learning the fundamentals of philosophical reading which ,in its turn, depends on certain methodic steps.

Key word's :diagnostic reading,methodology, philosophic text

يدور مضمون هذه المقالة حول القراءة التشخيصية وهي قراءة يقترحها علينا المفكر الفرنسي لويس ألتوسير من أجل الحد من أخطاء المفكرين الناجمة عن سوء فهم النص، والذي يترتب عنه الوقوع في التأويلات الخاطئة، والمعنى الذي يرومه ألتوسير من القراءات الخاطئة، هو تحريف النص عن محتواه الحقيقي؛ وعليه فإنّ فهم النص حسب هذا المفكر لا بدّ وأن يخضع لقرأة متأنية؛ قراءة يحاول فيها المفكر استنطاق ماهو مسكوت عنه، ماهو متوارى خلف الأسطر؛ ولتحقيق ذلك يقترح علينا ألتوسير القراءة التشخيصية كنموذج لقراءة النص الفلسفي.

إنّ البحث في النص الفلسفي أصبح محور اهتمام المفكرين والفلاسفة، وعلى الرّغم من أهميته على الساحة الفكرية، مازال النص بصفة عامة والنص الفلسفي بصفة خاصة يكتسي طابعا اشكاليا؛ ومازالت بصدده الآراء متباينة،حيث لم تتفق الأبحاث على تصور موحد لفهم النص ويدل هذا على أنّ عملية قراءة النص وفهمه ليست بالأمر الهين وإنّما هي عمل شاق ومرهق وهذا بإجماع الفلاسفة.

ويؤكد هذه الصعوبة أحد الفلاسفة المعاصرين، والذي هيمن إنتاجهم الفكري في فترة الستينيات والسبعينيات على المحافل الجامعية وعلى الساحة الفكرية الفلسفية، وهو الفيلسوف الفرنسي "لويس ألتوسير" (1918 – 1990)، والذي ولد بالجزائر العاصمة و بالتحديد في بئرمراد رايس،واكتسى شهرة واسعة بقراءته الجديدة لنصوص كارل ماكس.

لقد أولى لويس ألتوسير عناية كبيرة بمسألة النص الفلسفي ولا سيّما النص الفلسفي لماركس، و يتجلى هذا في مجمل كتبه نذكر على سبيل المثال كتابه من أجل ماركس، قراءة رأس المال، وكتابه مواقف، حيث يشدّد ألتوسير على ضرورة فهم النص فهما صحيحا يليق بالغرض الذي يهدف إليه صاحب الكتاب. إنّ السؤال الذي يطرح في هذا السياق لماذا اهتم ألتوسير بمسألة قراءة النص وفهمه؟

يرجع ذلك ألتوسير إلى جملة من الأسباب نذكر أهمها:

أوّلا: يعتقد ألتوسير أن النص الفلسفي كالكائن الحي، إنطلاقا من أنّ الذي كتب النص هو كائن حي له روح، له وجود، فالنص الفلسفي بهذا المعنى لا ينفصل عن الذي كتبه، بمعنى أكثر دقة؛ و من المفيد أن نذكر في هذا السياق أنّه إذا كان لم يحسم أمر الإجماع حول تحديد منهجية موحدة في قراءة نص فلسفي، هذا لا يعني أنّ النص الفلسفي لا يتميّز بخصائص أساسية تميزه عن النصوص الأخرى، على النص الأدبي أو النص الديني أو العلمي ومن جملة هذه الخصائص أنّ النص الفلسفي:

1- نص إشكالي أي أنه يستفزنا للتفكير في إشكالية محددة ولا يهدف إلى مجرد إخبارنا، كما أنه يبعث على التساؤل و النقد.

2- نص مفهومي أي أنه يتكون من جمل دلالية هي بمثابة شبكة مفهومية، المطلوب هو الربط بينها.

3- نص حجاجي (برهاني) بمعنى أن أي فكرة يطرحها الفيلسوف لن يكون لها قيمة بين الفلاسفة ما لم يتم البرهان على صحتها، فالنص الشعري يقوم على فكرة المجاز لدرجة أنه يكاد يكون مستحيلا وصف نص بأنه شعري ، أمّا البرهان الفلسفي مرتبط بالعقل، بل إنّه يتخذ من مبادئ العقل الأساسية مسلمات ينهض عليها "مبدأ العلية"، "مبدأ عدم التناقض".

يعتبر النص الفلسفي نتاجا إنسانيا، ووليد لحظة إبداعية فكرية.

ثانيا: إنّ النص الفلسفي كما يعتقد هو نابع و تابع لفترة تاريخية محددة أي أن هذا النص الفلسفي المراد قراءته وفهمه و ترجمته مشروط بسياق تاريخي وفكري وعليه لابد من مراعاة ظروف نشأة النص الفلسفي في كل تجلياته و أبعاده. إنّ النص الفلسفي حسب ألتوسير ليس قراءة معزولة عن الفترة التاريخية التي كتب فيها النص، وليس قراءة معزولة عن المجتمع و إنما النص هو حدث ، هو كلام، مرتبط بالواقع؛ والنص في نهاية المطاف هو تعبير عن القضايا المطروحة على الساحة الفكرية سواء كانت هذه القضايا سياسية، أو ثقافية أو اقتصادية، أو تربوية، وحتى عسكرية أمنية.

ثالثا: النص من وجهة ألتوسير عرضة للتأويل، كيف ذلك؟ إنّ النص الفلسفي عندما يخرج عن صاحبه ويتلقاه الباحث أو القارئ يصبح ملكا للقارئ وبالتالي يسقط عليه أحكامه، وفي غالب الأحيان يقع النص فريسة لسوء الفهم وهذا ربما لأسباب عديدة أهمها عدم اطلاع القارئ أو المترجم على السياق الذي كتب فيه النص أو عدم إتقانه للغة الأصلية للمؤلف، أو تأثر القارئ ببعض القراءات المغايرة و المناقضة لتوجه المؤلف الأصلي.

يتبين ممّا سبق ذكره ى أن ألتوسير تفطن إلى أهمية النص الفلسفي لا للأسباب التي ذكرت فحسب، و إنّما لأسباب عاشها وعايشها هو نفسه، وهي تجربة مر بها مع النص الماركسي محاولا استنطاق نصوص ماركس، وفهمها ونقدها. ومنه يتضح تشديد وحرص آلتوسير على استيعاب وفهم النص فهما لا يشوبه تشويه وتحريف ولا سوء التأويل من جهة، ومن جهة أخرى يريد إيضاح أمر في غاية الأهمية وهو أن عملية قراءة النص الفلسفي أمرا عسيرا أو صعبا، وهو محفوف بجملة من العوائق، على الدراس للنص أن يأخذها بعين الإعتبار، وأن يكون على وعي تام بأن هذه العوائق كسوء الفهم، والتأويل الخاطئ، والابتعاد على المحتوى المطلوب تؤدي في نهاية المطاف إلى تحريف النص الأصلي.

لقد انحصر عمل ألتوسير على فهم وقراءة النص الماركسي، ويقصد بقراءة نص ماركس إلى محاكمة النص إن جاز هذا التعبير،أي محكمة النقد والتحليل، والمساءلة، محكمة إرجاع النص الماركسي إلى أصوله الأولى: أصول علمية وليست أصوله الايديولوجية، أي إلى محتواه العلمي؛ وهو الغرض الذي كتب من أجله –حسب ألتوسير– كارل ماركس أيضا.

لقد عمل ألتوسير على توضيح هذا المحتوى، و هو بذلك فقد أعاد قراءة ماركس قراءة علمية وليست ايديولوجية، هذه القراءة الأخيرة التي كانت سببا في حجب البعد

العلمي لفلسفة ماركس ويحق لنا أن نطرح سؤلا في هذا السياق: ما هو مصدر هذا التحريف حسب ألتوسير[1].

لقد جاء هذا التحريف حسب ألتوسير نتيجة القراءات الخاطئة لنصوص ماركس، وهي قراءات تتسم بعدم الوضوح، ويتم عن جهل بالبعد التاريخي والزمني والفلسفي لنصوص ماركس وفي هذا السياق ميّز ألتوسير بين ثلاث قراءات:

القراءة الأولى يصفها ألتوسير بالقراءة الساذجة، والقراءة الثانية وهي قراءة حاولت أن تصل إلى البعد الحقيقي ولكنها بقيت أيضا على مستوى القراءة الأولى، والقراءة الثالثة وهي القراءة التشخيصية التي تنفذ إلى عمق النص.

القراءة الأولى وهي القراءة التي تقف عند حدود التلقى المباشر وتحاول أن تخضع نفسها للنص، تبرز ما تبرز، وتخفى لتقدم لنا صورا طبق الأصل من المقروء، أي تعبيرا مطابقا لوجهة النظر الصريحة والمكشوفة التي يحملها النص، هذه القراءة تدعى بالقراءة الفورية أو القراءة الاستنساخية ذات البعد الواحد لكونها تحاول جاهزة أن تتبنى نفس البعد الذي يتحدث عنه صاحب النص، هذه القراءة لا تخلو من التأويل بل تخلو من الوعي بما نقوم به من تأويل.

القراءة الثانية وهي القراءة التي يدرى من خلالها القارئ أنها تأويل، فلا تتوقف عند حدود التلقي المباشر، بل تريد أن تساهم بوعي في إنتاج وجهة النظر التي يحملها أو يتحملها الخطاب، و هي قراءة ذات بعدين، البعد الذي يتحدث منه صاحب النص، والبعد الذي يتحدث منه القارئ. إن هذه القراءة مثل القراءة السابقة هي قراءة لا تخلو من التناقض والتأويلات.

يعتقد ألتوسير أن القراءة الأولى و القراءة الثانية هي سبب في تحريف فلسفة ماركس وأسقطتها في الأيديولوجية كما يحلو لألتوسير تسميتها. ويخص ألتوسير نصوص ماركس التي كتبت في مرحلة الشباب أي نصوص ما قبل القطيعة التي حدثت في فكر ماركس، والتي خلقت مرحلتين متباينتين في فكر هذا الفيلسوف: مرحلة التفكير

الايديولوجي ومرحلة التفكير العلمي. إنّ عدم إدراك القطيعة التي أحدثها ماركس بين وعيه القديم ووعيه الجديد هو الذي أدى إلى تحريف النص الماركسي عن محتواة الحقيقي[2].

وهذا الجهل حسب ألتوسير بالقطيعة كان سببه القراءات الخاطئة للمؤلف الرئيسي رأس المال، ومن نتائج تلك القراءات الخاطئة اعتبر رأس المال مؤلفا في الاقتصاد، وفي علم الاجتماع تارة، وتارة أخرى في السياسة. غير أن النقد اللاذع الذي وجهه ألتوسير يمكن في القراءة الإنسانية أو القراءة الإنسانوية التي جعلت من كتاب رأس المال ذو طابع إنسي وليس علمي[3].

وما هو جدير أن يذكر في هذا السياق أن القراءة الأنسية هي قراءة التي استحوذت على فكر ألتوسير لأنها كانت سببا في تحريف فلسفة ماركس، كما تبين هذه القراءات أن ماركس قد أولى في مؤلفاته اهتماما كبيرا للإنسان باعتباره –الإنسان– محرك وصانع التاريخ لقد كان عيب القراءة الإنسية لنصوص ماركس في اعتمادها على ظاهر النص، أي أن القراءة الفورية الساذجة، التي لا تنفذ إلى عمق فلسفة ماركس باعتبار هذه الفلسفة الإنسية اكتفت بقراءة ظاهر النص ولم تنفذ إلى عمقه، وبالنسبة إليه فإن هذه القراءة التي تعتمد على الظاهر فقط هي بداية لفهم النص وليس نهاية فهمه .إذن ما هي القراءة التي يقترحها علينا ألتوسير لفهم النص في بعده الأصلي وليس في بعده الثانوي؟

يقترح علينا ألتوسير القراءة الثالثة،و هي القراءة التي ترمي إلى تشخيص عيوب الخطاب وإبراز ما تهمله أو تسكت عنه أو تتستر عليه القراءاتان السابقتان. إنها تكتشف التناقضات التي يحملها النص.

يسمى هذه القراءة التوسر بالقراءة التشخيصية Symptomale وتهدف إلى تحديد الخطاب الجلي والواضح و المقروء من الخطاب غير المقروء بتركيزها على اللامنطوق من القول، تتطلب القراءة التشخيصية حسب ألتوسير قراءة النص قراءة متأنية، قراءة النص حرفا حرفا، وسطرا سطرا، و كلمة بكلمة حتى يتم الكشف عن الأساليب اللفظية من استعارات وتشبيهات كما تفترض هذه القراءة قراءة النص في لغته الأصلية والإبتعاد

عن قراءته مترجما، وحسب أحد الدارسين لفكر ألتوسير أن القراءة التشخيصية التي اعتمادها ألتوسير والتي آراد تعليمها إيانا تهدف إلى قراءة النص قراءة مقصودة وشكية تهدف إلى مسألة النص حول ما يمكن أنه نفهمه، وما لا نفهمه، وحول ما فهمه المؤلف، وما غاب عن فكره، وحول ما كتبه المؤلف وما ينبغي أن يكتبه[4].

إنّ القراءة التشخيصية بهذا المعنى ليست مساءلة نصوص المؤلف حول ما مدى تناسق وانسجام أفكاره فحسب، وإنما البحث عن الأفكار والتغيرات والأخطاء التي وقع فيها المؤلف، البحث عن ما أراد قوله وما لم يرد قوله والأسباب التي جعلته يتريث في القول أو الأسباب التي منعته من القول، مثالا على ذلك بماركس إذ رأى ألتوسير أنه حدث تحول كبير في فكر ماركس في الفترة التي تفصل بين مخطوطات 1844، والأيديولوجية الألمانية.

لقد بدأ ماركس حسب ألتوسير في هذه الفترة يتكلم عن العلاقات الاجتماعية وعن الواقع، ولكنه لم يتخلى عن الحديث عن الإنسان وعن التاريخ باعتبارهما يشكلان ماهية الإنسان، ورغم هذا يرى ألتوسير أن ماركس في كتاب الايديولوجية الألمانية بدأ يوحى بظهور المادية التاريخية حيث أصبحت العلاقات الاجتماعية هي التي تشكل ماهيته الإنسان ومضمون الأطروحة العاشرة حول فيورباخ توحي بهذا التحول حيث العلاقات الاجتماعية هي التي تحدد ماهية الإنسان. إنّ هذه الأطروحة حسب ألتوسير كانت توحي بظهور شيء جديد في فكر ماركس غير أن ماركس لم يفصح عنه، لا لأنه لم يعرف كيف يعبر عن هذا الشيء ، و لكنه كان يمتنع عن الحديث عنه[5].

الهوامش:

1- Louis Althusser ,Etienne Balibard , lire le capital ,Paris,F.M , 1980,p11
2-Ibid,p12
3-Kader S.Nair,Pouvoir et politique,Oran,cahier du cridssh,1954,pp 94-95
4- Louis Althusser ,Etienne Balibard , lire le capital ,p11
5- Ibid,p55.